إستقلالية اندريه جيد

بقلم صلاح ستيتيه

حين يطلع علينا وجه اندريه جيد ، في هذه الذكرى ، فان الصورة الاولى التي تطفر الى اذهاننا حول هذا المفكر الذي شاء ان يكون تامّ الاستقلال ، هي صورة تعلقه بكل ما يحيط به من افكار ومفكرين . وما زلنا نذكر ذلك الكاتب الذي ذهب الى ان مفتاح الرجل هو في « خوفه من ان يخيّب الظنون » ، وهذا مايفسر الى حد ما ، في رأي ذلك الكاتب ، ما كان في آثار جيد من نجوى دائمة ، كأنها منبر للاعتراف تنطلق منه ابداً حاجة للتبرير الملحّ . ثم انه من اليسير ان نجد في هذا الصراع الذي يقف فيه جيد وجهاً لوجه مع الآخرين حرصاً دائماً على تحدي قناعه . واخيراً اية حجة في تأييد هذه النظرية اقوى من الجهد الذي كان يبذله – والذي شهده كثيرون ممن كانوا متصلين به اتصالاً وثيقاً – لاصطناع وجه له ، كان يستفيد من الآراء التي تُطلق حوله ، لكي ينجز خطوطه وليترك عليه لغزاً قاطعاً .

على انني اعتقد بان «استقلالية» اندره جيد كانت شيئاً حقيقياً . وليس من اليسير ان نستخلص من تلك المؤلفات التي وُلدت دائماً من ظروف داخلية ، النصيب الذي كان فيها لبعض الاشخاص ، ومع ذلك فان الاعتراف الذي اراده اندريه جيد تاماً في « اذا لم يمت الحَبّ » مثلاً ، هو موجه الى امرأته ، الى حد ما . ثم أليس حقاً ان مقاطع البراهين والحجج العميقة في « كوريدون » تخفي رد الفعل المتحمس « للأخلاقي» تجاه الذين يستمرون في الامل والرجاء ضد كل امل ورجاء ؟

وحاجة جيد الى ان « يوجد » بصوت مرتفع ، وجوعه الى اكتساب من يعارضه ، أليس هذان عنصرين يكشفان عن طبع متردد حائر يشعر ، من اجل ان يمتلك اراضيه الخطرة، بضرورة ماسة الى التعاقد ؟ لا نطمئن كل الاطمئنان الى هذه الفكرة ، فان جيد لم يكن خجولاً ، ولكن ... هنا نبلغ صميم القضية .

هناك الفكر وهناك الارادة وهناك القلب ، وقد كان جيد يرى بكل ما في فكره الواضح من قدرة ان هذا الذي كان يناديه بكل قواه كان وحده حقيقياً ، ولو لم تكن هذه الحقيقة تفيد الا لاستعماله الخاص . وآية ذلك الثبات الدائم الذي تميز به ، بالرغم من المعاكسات التي لا مفر منها، لكي يبلغ بشخصه دون ان يتنازل عن شيء منه الا بالظاهر، مصيره المبتكر الشاذ. وأحسب بعد ذلك انه لم يكن في هذا التراجع الذي سجله جيد امام بعض اعماله وتصرفاته او في هذا النظر المتجه الى الخلف والذي يطلب من الانظار الاخرى ان تتموضع وتنسجم ، لم يكن في ذلك التراجع وفي هذا النظر سمة ضعف ، وانما كان فيهما الاضطراب الخطر الذي يدخله في وحدة الارادة والفكرة تلاعبُ حساسية فنان مريضة تحت قوس ادراك عقلي لاحد له .

ولنقف هنا لحظات . فانه يبدو لي ان جيد لم يكن يحرص على ان يفهمه الناس إلا لأنه كان يحاول ان يحرّر حساسيته المتألمة البرمة من عذاب لا فائدة منه وليست فيه اية بطولة .

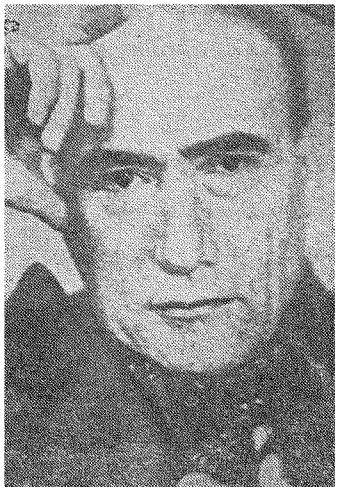

في مثل هذا الشهر منذ ثلاثة اعوام، خسرت فرنسا احد اعلامها الكبار في الادب . وقد كان اندريه جيد ، بما حفل به ادبه من اهتزازات شعورية ولمعات فكرية واضطرابات نفسية ، شاهداً من اصدق الشواهد على ذلك العصر الذي عاش فيه وعاشت فيه بلاده .

وكاتب المقال يحدثنا هنا ، بهذه المناسبة عن مظهر من شخصية جيد ، لم يكن دائماً شديد الظهور . ولعل جهد التعمق في هذا المقال هو الذي يضفي عليه مسحة من الغموض .

فكيف يمكن لك ان تطالب ذلك الرجل الذي كان يدعو الى ان يتحمل كلٌ منا مصيره ويستهلك حياته ، ان ينتظر ان يأتيه من خارج ذاته ما يثبّته في كينونته ؟ لقد كان قصارى ما يرجوه ان يُبطل اثر الرأي السيء، بان يكسبه لنفسه ، بالرغم من انه كان يشجبه ، وانما كان يعتقد بان هذا الرأي ربما أثّر فيه تأثيراً خطيراً فحال بين روحه وبين الانطلاق . فنستطيع اذن ان نقول إن الأهمية التي كان يوليها جيد للاحكام التي يصدرها مجموع الناس عنه ناتجة عن ان هذه الاحكام تنزع الى ان تخلق لديه عبودية لا يستطيع حقه مهما كان عنيفاً ان يقاومها. هي أهمية دون ريب ، ولكنها سلبية ، ومن المرغوب فيه ان يستغلّها لكي يخلق حوله أصلح الظروف والاوضاع لتفتُّحه الكامل ، وعلى ذلك فان جيد كان دائم الاهتمام لأن يردّ حجج الذين يقاضونه بما كان يمكن لهم ان يتأكدوا منه ، لو انه اتيح لهم ان ينظروا خلف قناعه المناضل، الى وجه لامبالاته وضجره.

اوليس من الطبيعي بعد ذلك ان تلتمس هذه النفسية التي يعيشها كاتبٌ أعمق مزاياه انه كلاسيكي محافظ ، وهذا وضع لا بدّ له من ان يقلقنا ؟ اليس من الطبيعي ان تلتمس تلك النفسية سبب حياتها في تعجيل صراعها الداخلي ؟ إن الانسان لا يقتل ولا يتحدّى حقاً الا ما يحبه . وقد كان جيد يحبّ نفسه ويخشى نفسه ، حباً وخشية عظيمين .

وإذن ، فانها استقلالية كوريدون تجاه الذين لم تكن موافقتهم في نظره الا نوعاً شقياً من المعروف ، اولئك الذين لا يعرف ان يهتمّ بهم مباشرة لو كان بودّه ان يقوم بوجههم ؛ ولكن لم يُقَلْ كلّ شيء . فقد بات من نوافل القول ان جيد قد تصوّر حياته كأنها مسرح ، او تصوّرها فصلًا مرتجلًا تحت آلاف من العيون التي توقظها وتفتحها كراهية شديدة، ويقوم بتمثيله شخصيات لا ينتظرها النظارة ابداً .

وهذه الصور والرسوم التي وزّعها الكاتب ونثرها عنه في كتبه، الا تكشف بما تتيحه لنا من تأمل وجهٍ قد دمغته الحياة بطابع رائع ، عن قلق غير طاهر ؟ وقد يقال لنا اخيراً الا ترون جيد ، سواء في مذكراته او مذكرات اصدقائه او في رجوعه الدائم الى امثلة كبيرة من الماضي، شديد التبرم بالصورة التي ستحفظها القرون عنه ؟ إن هذه حقيقة لا جدال فيها ؛ وإلا فهل يكون جيد اكمل شاهد على جنسه ، منذ بطريرك فيرني ؟ او لا يحقّ لنا ان نقف ايضاً ، خلال براعة الكاتب تلك التي يستعملها ليفرض علينا شخصيته ، وتلك السهولة في ان يضطرب ويتحرك عبر المظاهر الشديدة التنافر ، على الحرية العظمى لضمير عرف كيف ينظم وحدته وعزلته في وجه الجميع ؟ اليس من خاصّة كبار الممثلين ان يتمكّنوا من ان يعزلوا انفسهم في ادوارهم ؟ ومَنْ الذي يطمح منهم الى بلوغ العظمة المعقدة التي بلغها جيد الذي لم يتحرّر اولاً من كراهية النظارة ؟

ولست اجد ما يمنعني من ان اختم هذه الكلمة ، مع شدة رغبتي في ان أدخل على مجموع افكاري فيها بعض التقويمات الضرورية ، بقولي : ان هذا الذي كان من اوائل كتّاب عصره كان ايضاً من اوفرهم استقلالية . ففي هذه الحرب الدائمة ضد ظروف مسلّحة عديدة ، رفض جيد ان يشهر الصراع ضد ظرفٍ لا يلائم او يشابه احد وجوهه العميقة غير المرئية . وبوسعنا ان نقرّ آخر الامر ، دون ان نبلغ حدّ التناقض ، ان جيد قد تمكّن دائماً من ان يُخضع له القدر والمصير .

باريس — صلاح ستيتية

— ان لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكاراً فليس في العلم اذن ابتكار على الاطلاق (ص ٥٥)

— من اجل ذلك لم يكن محمد نبي الاسلام فحسب بل نبي اللغة العربية والثقافة العربية على اختلاف اجناس المتكلمين بها واديانهم (ص ٤٣)

اقرأ كتاب

الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط

تأليف المستشرق

الدكتور جورج سارطون

أستاذ في جامعة هارفرد

رئيس الاتحاد الدولي لتاريخ العلم

نقلها الى العربية

الدكتور عمر فروخ

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

منشورات

مكتبة المعارف في بيروت

ساحة النجمة - شارع المتنبي

تلفون ٩٥ - ٦٧ بيروت

الثمن ليرة لبنانية واحدة

ترسل الطلبات الى جميع الاقطار العربية